صيحة الحرية

(مسرحية من فصل واحد)

رابح خدوسي

دار الحضارة

2015

صيحة الحرية

التاريخ: نهاية عام 1830م

المكان: ثكنة عسكرية بالجزائر.

(يُرفع الستار عن قاعة واسعة بها مجموعة كراسي خشبية تجلس عليها مجموعة من الأشخاص،،، رجال ونساء بألبستهم الأروبية، يتأملون الخريطة الكبيرة المعلّقة على الجدار خلف مكتب حديدي يقف قربه جندي بزيّه العسكري...)

يدخل ضابط برتبة نقيب فيقف الجميع للردّ على تحيّته ثم يجلسون وابتسامات التفاؤل تبدو على محيا كل واحد منهم...

الضابط:

- أعزائي شكرا على هذا الاستقبال، إني متأكد بأنكم راضون عن كلامي السابق وأنتم ترون وعودنا لكم توشك أن تتحقق.

(لحظات تأمل يصحبها همس بين النساء)،

ثم يواصل الضابط حديثه:

- إن فرحتكم كبيرة بهذه السماء الزرقاء والأرض الخضراء التي سيرثها بعدكم أحفادكم عن أبناءكم، وإني أهنّئكم مسبقا باسم الحكومة الفرنسية بالذكرى الأولى لعيد الاحتلال 1830م

الحاضرون: (ينظرون في ابتهاج إلى الخريطة المعلقة)

الضابط:

- عبرتم بحرا صغيرا فوجدتم الجنة المنشودة.

أحد الحاضرين: (يقف قائلا):

- لقد دخلناها بغير حساب، بل قطعنا البحر ونحن نملى من....

(تقاطعه قهقهات الحاضرين)

الضابط: (وهو يقترب من الخريطة)

- هذه الجزائر أيها السيد ماريوس وأنتم سفراء فرنسا في جزئها الثاني، فأين وقع اختياركم أيها (الملوك)؟

بورجو:

- لقد فضلت المكان الذي تضعون فوقه أصبعكم الابهام إذا وافق إخواني "الملوك"

الضابط: (ينظر إلى الخريطة)

- لقد اخترت الأراضي الساحلية، ، فهل أعرف السبب؟

بورجو:

- نعم، ، ، يا سيدي "مورا" كما تعرفون أن زوجتي العزيزة (ينظر صوب امرأة بجانبه) تهوى صيد الأسماك، وصغيرتي يروقها (البرونزاج) على رمال الشاطئ طوال العام.

الضابط:

- وأنت يا "ماريوس" أظنّك شديد النهم للخنازير.

ماريوس:

- آخ... سيدي النقيب، ، ، ليتني "أبسط يدي على كل هذه الأرض، ، ، وما وراء حدودها فقد أنستني كل شهية.

بورجو:

- لا تكن جشعا يا "ماريوس"، ، ، إن البواخر المحملة إلى الجزائر بإخوانك المعمرين يجب أن لا ترجعهم مرة أخرى إلى فرنسا.

- هل نسيت جموح سوستيل؟ !

ماريوس:

- متيجة، ، أيها العزيز هل وجدنا في دروس جغرافية أروبا مايضارعها؟

الضابط: (في سرور)

- هنيئا لكما بالجوار، فهل أعرف رغبة صديقي"قايار" بعد جولته الاستطلاعية في الجزائر؟

قايار: (في ضخامة جسمه يرفع رأسه محتارا):

- لقد احترت يا صديقي الحميم، فكلما رأيت قطعة جديدة، انستني التي قبلها وكأنني مراهق أراضي.

مدام جرمان: (امرأة في الثلاثين من عمرها ، ، ، سألته في مرح):

- وأين توجد صاحبة الحظ التي تعلقت بها؟

قايار:

- بونه بونه وسهولها يا سيّدتي، ، ،

وأنت يا سيّدتي لا تخلفي ظنّ زوجك جرمان الذي أرسلك لتختاري الأراضي الصالحة ذات الهواء الجاف مثلما نصحه الطبيب.

السيدة جرمان: (تهزّ رأسها في إيجاب)

قايار (في مكر):

- حذار أيتها الحسناء أن تتعلقي بأحد من العرب، ، ، ليس الوضع هنا مثلما هوهناك، ، ،

مدام جرمان: (يحمرّ وجهها وتنظر نحو الضابط نظرات ذات مغزى)

الضابط: (يحرك يديه في حركة لا إرادية ويقول):

- لا... نعم... نحن حريصون على مصالحكم، والسيّد جرمان سيبتهج كثيرا عندما يرى تلمسان وسهولها، ، ، أليس كذلك يا سيّدي؟

مدام جرمان:

- بلى وأنا كذلك، ، ، سيما عندما أصبح قريبة من شقيقتي بالمغرب الأقصى.

الضابط:

- هيا يا عسكري، ، ، ناد قدور ليحضر لنا النبيذ.

(يخرج العسكري بسرعة بينما يطوي الضابط الخريطة، ثم يدخل شاب وعلى كتفه صندوق من المشروبات)

الضابط: (يقترب من الجالسين ويأمر قدورا):

- تقدّم يا قدّور...

قدّور: (يتمتم كلاما غير مفهوم)

الضابط: (يوزع زجاجات النبيذ من الصندوق الموجود على كتف قدّور):

- هنيئا لكم أيها الأعزّاء، ، ، لقد صدق ظنّي بأنكم

لاتقربون الأراضي الجبلية أو الصحراوية حيث تسكن الذئاب والحشرات، ، ،

قدّور: (يقاطعه، ، ،)

- والأسود.

بورجو: (في ابتهاج):

- آه، ، ، سأبعث جلد أسد هدية إلى حماتي.

قدّور:

- ولكن الأسود الجزائرية لا تُسلخ، ، ،

(يتعجب الحاضرون ثم يقهقهون ... ثم يصمتون ...)

الضابط:

- انصرف ياقدور ولا تنس تقديم الخوخ إلى الخنازير.

قدّور:

- أين يوجد؟

الضابط:

- اسأل الحارس عن صندوق الخوخ الذي أخذه أمس من العربي صاحب الحمار.

(ينصرف قدور ويبقى الجميع يتناولون النبيذ ، جماعات، جماعات، تصدر عنهم كلمات وجمل منقطعة في أغلبها) .

بورجو:

- ما ألذّ هذا الشراب، ، ،

الضابط:

- إنّه معتّق يا بورجو.

ماريوس:

- كيف صبرت عنه إلى أن صار هكذا؟

الضابط:

- لقد وصلني مؤخرا هديّة من (الأب) الموجود بالهند الصينية، وطلب مني أن أرسل له برميلا من الجزائر، هل تفعل ذلك يا بورجو؟

بورجو:

- نعم لكن ليس الآن، ، ، لأنّ بعض الرعاة العنيدين لازالوا يحاولون التمسك بحبات العناقيد.

الضابط:

- أرجو ألا تكونوا ضعفاء في تمثيلكم(معهم)، ، ، الأرض لكم وأنتم سادتها، ، ، السلطات العسكرية تحت تصرفكم في وقت الحاجة ولا تراعوا للعرب المسلمين أيّ اهتمام، يكفي أنّنا تركنا لهم البادية.

قايار: (يهمس في أذن الضابط):

- هل تتشرف بمرافقتي إلى بونه؟

الضابط:

- إن الأوامر لم تصلني بعد، ، ،

قايار (هامسا):

- بدون شك، ، ، ولكن قلبك يرغب في تلمسان، ، ، حيث ستقطن "مدام جرمان".

الضابط: (محذرا بصوت منخفض):

- اخفض صوتك، ، ، إنّها المرة الثانية التي تكاد تفضحني فيها أمام الملأ، ،

قايار:

- إن عيونك تعترف، ، ،

الضابط: (في شدّة):

- أصمت ياقايار.

ماريوس:

- بماذا تقرّ هتان البحيرتان الزرقاوان؟

الضابط: (يداري في مراوغة):

- إننا متأسفون يا ماريوس كيف وصلنا متأخرين إلى هذه الأرض التي تتام بين ضلوعنا ، أين كنا القرون الماضية من هذا الأمر؟

ماريوس:

- كنا نحرق ضلوع (جان دارك[1]) ياسيّدي الضابط ونبني من رمادها أسوار "الباستيل[2]" !!

بورجو:

- دعك من الخيال يا موريس، ، ، هيا ندبر أمر الغداء، إنّ معدتي تنادي...

الضابط:

- أجل، ، ، يشرفني ويشرف مائدتي أن ترحب بكم، ، ، ماهي رغباتكم؟

قايار:

- يالشدّة شهيتي للمشويات مع الخس الزائد الملوحة.

1. جان دارك: قديسة فرنسية حاربت الإنجليز... أحرقها أهلها في روان (1431).
2. الباستيل: سجن في فرنسا حطّمه الثوار أثناء الثورة الفرنسية 1789م.

زوجته:

- لا تنس نصيحة الدكتور وأخطار ضغط الدم، والسمنة التي تضايقك في الصيف.

قايار:

- بل العكس يا زوجتي العزيزة، إنّي أراها تجعلني محترما بين الرعاة النحفاء.

ماريوس:

- لا يوجد أغلظ من الصفر.

قايار:

- وليس هناك أهم من الصفر، تأكل عن طريقه و تسمع و تشم عن طريقه كما ولدت عن طريقه.

الضابط:

- ماذا يرغب العزيز بورجو؟

بورجو:

- سمك مطهو مع البطاطس الساحلية

(فترة صمت يواصل بعدها كلامه قائلا) :

- على فكرة: إني عازم على جلب بذور البطاطس الحمراء من فرنسا لأجربها هنا، ، ، ،

ماريوس:

- إنـي أخـشـى ياصـديقي أن يـؤثر لونهـا علـى التربـة فتـصبح حمراء.

بورجو:

- لا أستطيع اليوم أن أفهم ما تقول يا ماريوس، إن تفكيري منصب على مشاريعي وآمالي، ، ، هيا اطلب ما ترغب تناوله..

ماريوس:

- شكرا ، ، ، أرجو أن لا تتعجبوا من رغبتي و لعابي الذي يسيل لرائحة الأرانب المطهوة على الطريقة الألمانية، فالأرانب في هذه الغابات كثيرة، ، ، وكم تكون متعتي كبيرة وكبدها يتفتت بين أسناني.

الضابط:

- أحسنت الاختيار يا ماريوس، ولم تطلب إلا قليلا أيها الغالي على قلوبنا (يتجه نحو السيدة جرمان):

- وماذا ترغب الضيفة الكريمة أن تقدم لها مائدتها؟

السيدة جرمان (في نهم):

- آه، ، كم يلذ لي لحم الديوك العربية، ، ،

قايار:

- ياللذوق الرفيع، ، ، والأعراض الوحمية،

الضابط:

- لا تبالغ يا قايار، إن السيدة، ، ، (يتذكر شيئا) لكن أين تصطاد هذه الديوك؟

العسكري: (يتقدم إلى الضابط محييا):

- يا حضرة النقيب إن "لقدور"ديكا ودجاجة وكتاكيت...

الضابط: (يرد التحية بيده اليمنى):

- أسرع وقل له يحضر ما عنده،

(يخرج العسكري مسرعا)

بورجو:

- لا تنس أيها الضابط أن المائدة زينتها العنب والبطيخ، ،

(بعد مدة زمنية قصيرة يدخل العسكري يحمل بين يديه ديكا أحمر ثم يدخل قدور)

يخرج العسكري من جيبه بيضة ويضعها فوق المكتب.

الضابط:

- أين الكتكوت؟

قدور:

- مات عندما شاهد العسكري.

الضابط:

- أين الدجاجة؟

قدور:

- أغمي عليها لما فارقها حبيبها.

الضابط:

- هات الديك...اذبحه.

قدور:

- لا...لا أقبل ذبحه ولا...

الضابط:

- أتخالف الأمر...؟ أم أن الديك أهمّ منا؟

قدور:

- نعم أهم منكم، لأنه يخبرني بتوقيت الفجر، أقوم للصلاة وأدعو للوطن.

(يتقدم الضابط نحو قدور ويريد أخذ الديك بالقوة، يجري قدور أمامه، يتبعه الآخرون، فيكونون دائرة، يقبضون على جناحي الديك ورجليه، يفلت قدّور منهم ويحمل البيضة من فوق المكتب).

قدور:

- سيأتي من هذه البيضة مليون ديك

(يخرج قدّور ويتبعه الحاضرون يريدون اللحاق به ولكن الخمرة تفقدهم توازنهم فيسقطون الواحد تلو الآخر).

الديك:

- يصيح صيحات متتالية وينتفض بين أيديهم المرتخية، فينجو ويطير فارا وراء قدور...

- يسدل الستار -